مذهب الجبرتي في كتابة التاريخ من خلال كتابه
(عجائب الآثار في التراجم والأخبار)

أعد البحث
الدكتور محمد حسين الزبيدي
جامعة بغداد - كلية الآداب

كانت الحياة السياسية في مصر في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي قلقة لا تستقر على حال من الاحوال وكانت مصر يومها مسرحا لاحداث جسام تعاقبت عليها دول وقامت فيها ثورات وفتن وعمت فوضى الجند في البلاد بسبب عجز الدولة عن دفع مرتباته واستفحل النزاع بين الفرق التركية والعائلات المملوكة وراحت اسر عريقة ضحية للغدر والخيانة بينما حكمت اسر اخرى دخيلة على البلاد لا تمت إليها بصلة جاءت عن طريق الدس والخديعة واضطرمت نار الفتنة حول استلام السلطة واقامت حروبا اهلية طاحنة لا نهاية لها .

وصارت قصور الامراء والحكام في مصر يومها مكانا تحاك فيه المكائد والدسائس والمؤامرات وفي هذا الجو المضطرب عاش الجبرتي وعاصر اهم الاحداث والتقلبات ، فعاصر عصورا ثلاثة ــ اواخر العصر المملوكي وشاهد عيان للاحتلال الفرنسي والسنين الاولى بحكم محمد علي .

كان الجبرتي على جانب كبير من العلم والمعرفة فضلا عن طموحه الشديد فاستطاع بذلك ان يدخل معترك الحياة السياسية فاختاره نابليون عندما استولى على مصر عضوا في ديوان الاعيان وهو الديوان الذي حاول

ان يحكم به مصر . ولما خرج نابليون من مصر تولى وظيفة افتاء الحنفية وموقتا الصلاة ورؤية هلال رمضان وهلال شوال في بلاط محمد علي.

وبهذا استطاع ان يقف عن كثب على سير امور البلاد وفي نفس الوقت هيأ له قربه من السلاطين والامراء ان ينال خطوة كبيرة ومقاما رفيعا واصاب نفوذا عظيما غير ان ذلك سرعان ما زال بغضب محمد علي عليه .

لقد ناصر الجبرتي الفرنسيين ثم محمد علي من بعدهم ولكنه رغم كل ذلك كان في الحالتين حر الرأي نافذه وقد نقد في هدوء الاعوام السبعة عشر الاولى من حكم محمد نقدا لاذعا .

عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي .

ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٤ م) وهو من اسرة من العلماء اخرجت كثيرا من شيوخ رواق الجبرتية بالازهر ولعل اعظم رجال هذه الاسرة والده الشيخ حسن وقد اشتهر بأنه اخر من درس علم الهيئة بجامع الازهر .

وقد سار عبد الرحمن على سنة اسرته وما لبث ان تخرج في الازهر بعد ان درس علوم الدين والفقه واللغة وبرع ايضا في الحساب والهندسة وعلم الفلك . فصار من كبار علماء الازهر بعقد حلقات التدريس لطلابه ومريديه .

وقد قتل له ولد فبكاه مر البكاء حتى ذهب بصره ولم يطل عمره حتى قتل غيلة في شارع شبرا اثناء عودته الى القاهرة في الليلة السابعة والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ هـ ٢٢ يونيه ١٨٢٢ م خنقا وألقى تبعة قتله على محمد علي لانه عرف بعض رأي الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التراجع والاخبار) وكان يقوم بتأليفه اذ ذاك وقد الف عدة كتب هي:

١ ــ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .

٢ ــ عجائب الآثار في التراجم والاخبار (٤) اجزاء .

٣ ـ مختصر تذكرة الشيخ داود الانطاكي •
٤ ـ نقد كتاب الف ليلة وليلة •

ان الذي يعيننا من تاريخ الجبرتي الجزء الاول منه موضوع بحثنا وهو مخطوط يوجد في مكتبة متحف الآثار العـراقي تحت رقم ١٦٣٦ ويحتو على ٤٠٥ صفحة من القطع الكبيرة وتحتوي كل صفحة علـى ٢٥ سطـرا •

وقد كتب في الورقة الاولى من المخطوط عدة سطور بخط مغـايـر للاصل • وقيل ان هذه الاسطر كتبها الاب انستاس الكرملي يقول فيها :

(هذا المخطوط بخط مؤلفه الجبرتي وهو يختلف كثيرا عن المطبوع لانه لما طبع حذف منه اشياء كثيرة ما كانت توافق آراء اهل الحل والربط فتصرفوا فيه • اما هذا المخطوط فهو المعول عليه اذ هو الاصل) •

وجاء في الورقة الاخيرة من المخطوط عدة اسطر كتبت بخط مغـاير للاصل ايضا • (هذا آخر ما يسره الله لي من تدوينه في هذه السنة بنا الله جل جلاله حسن الخاتمة والحمد لله تبارك وتعالى في البدء والختام والصلاة والسلام على سيدنا محمد من هو للانبياء ختام وعلى آله واصحابه الائمة الاعلام • قاله بضمه وحرره بقلمه الفقير الحقير راجي رحمة ربه الغني عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي غفر الله له وعامله بلطفه) ولتاريخ الجبرتي قيمة اجتماعية واقتصادية كبيرة فضلا عن قيمتـه السياسية فهو صورة مفصلة لحياة الشعب المصري في ذاك الوقت •

وترجع قدرته في رسم هذا المجتمع الى وضعه الاجتماعي الذي سهل عليه الاحاطة بما يحدث حوله • وبيئته العلمية التي نشأ فيهـا والظروف التي احاطت به وهي بلا شك ظروف مناسبة اتاحت له فرصة الانصراف والتفرغ لطلب العلم والمعرفة • فدرس علوما متعددة معتقدا بأن المؤرخ لا بد

له ان يكون ملما بعلوم كثيرة فاذا كان لا يعرف الا التاريخ (رواية الاخبار) كان قاصا فقط .

دون الجبرتي في تاريخه هذا حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه واوائل القرن الثالث عشر على شكل مسودات جمع فيها بعض الوقائع والامور التي شاهدها بصورة اجمالية واخرى محققة تفصيلية ومعظمها محن ادركها وامور شاهدها وكتب ضمن ذلك سوابق سمعها وتلقاها من افواه المشايخ وجاء فيه بعض تراجم الاعيان والمشهورين من العلماء والمفسرين ولمح من اخبارهم واحوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفاتهم .

ثم جمع شملها وقيد شواردها ـ كما ذكر ـ في اوراق متسعة النظام مرتبة على السنين ليسهل على الطالب المراجعة والاستفادة وكان يهدف من هذه الاخبار والاحداث الى العظة والعبرة في بعض الاحيان ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ويستفيد من يريد المنفعة ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فلا ييأس اذا اصابته مصيبة ويتعظ بحوادث الدهر .

ولهذا سماه (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) .

ولما عزم الجبرتي على جمع ما كان قد سوده اراد وصله بشيء قبله فلم يجد بعد البحث الا بعض كراريس سودها بعض العامة من الاجناد ركيكة التركيب مختلفة الترتيب والتهذيب وقد اعتراها النقص في مواضيع في سرد بعض الوقائع . فقال فيه (وكنت قد ظفرت بتاريخ من ذلك الفرع لكنه على نسق بالجملة مطبوع اشخص يقال له احمد جلبي بن عبد الغني مبتدأ فيه من وقت تملك بني عثمان للديار المصرية وينتهي سنة ١١٥٠ هـ) .

ولكن هذا الكتاب استعاره بعض الاصحاب (وزلت به القدم ووقع

في صندوق العدم) فرجع يجمع التاريخ ويدونه مرة اخرى معتمدا على ذكريات الشيوخ والمسنين والوثائق الرسمية وصكوك دفاتر المكتبة والمباشرين والكتابات التي على شواهد القبور . مدونا بذلك اخبار اول القرن الثاني عشر الى عام ١١٧٠ هـ .

أما ما بعد عام ١١٧٠ هـ فأنه اعتمد في تدوينها على مشاهداته الخاصة حتى تم تأليف الكتاب وقد ذكر المؤلف حوادث مرت به وهو حدث صغير ، ويفصل الكلام عن الحوادث ابتداء من عام ١١٩ هـ ولذلك كان لكتابه شأن الجريدة المعاصرة لهذه الفترة لانه دون فيه كل الحوادث التي شاهدها . ومما لا شك فيه بأن نزاهة احكام الجبرتي أمر اكيد فهو من بيت علم يعرف قدر الرواية المحكمة اذ رواها شاهد عيان .

على ان الجبرتي لا ينكر في مواضع من كتابه أنه استفاد ممن جاءوا قبله وتناولوا كتابة التاريخ بالدراسة والبحث كالاسحاقي والدمرداشي وابن اياس وابن زينل وابن خلدون وان لم يشير اليه بصراحة الا ان ذلك واضح كل الوضوح في ثنايا كتابه وبذلك اتيحت له فرصة كبيرة لمراجعة الكثير من الكتب التي تعني موضوعه ، كمرج الزهور وبدائع الزهور وتاريخ القرماني ومقدمة ابن خلدون وغيرها . فكل هذه كتب اسهمت في تغذية افكاره وتوجيهها .

من ذلك يتضح ان الجبرتي اعتمد في جمع تاريخه على مصدرين اساسيين اولهما كتب التاريخ استعان بها في كتابه التمهيد والمقدمة ولا سيما فيما يتعلق باستعمال العرب للتاريخ الهجري وفي تقسيم المجتمع الى طبقات وغير ذلك . وثانيهما شهود عاصروا الاحداث وهؤلاء ينقسمون الى : اما شهود سماع سمعوا الاحداث ورووها او شهود شاهدوا الاحداث او ساهموا فيها فوصفوها وصفا دقيقا . واهم من هذا

كله ما كتبه الجبرتي للاحداث المعاصرة التي شاهدها او ساهم فيها وهذا اوثق قسم من الكتاب •

ومن الاشخاص الذين بذلوا المساعدة للجبرتي في كتابة تاريخه هذا وامدوه بمادة غزيرة صديقه اسماعيل الخشاب وكان هذا الصديق من عدول المحكمة وقد حوت هذه المحكمة صكوكا كثيرة ووثائق رسمية ودفاتر الكتبة والمباشرين فطلب منه ان يدون له اسماء الناس واعمارهم ولم يكتفي الجبرتي بذلك بل طاف في المقابر لقراءة شواهد القبور والاتصال بأهل الموتى وذويهم لاستقاء المعلومات الصحيحة والاستفادة من ثأرهم ومخلفاتهم ان وجدت •

وقد تجنب الجبرتي اخطاء المؤرخين الذين سبقوه وهي الثقةالمطلقة برواة الاخبار فأخذ يمحص كل خبر ويدققه بعناية جيدة واعتقد انالخبر نفسه يحتمل الصدق او الكذب وبذلك اعطانا صورة امينة وموضوعية في تحريه للحقائق التاريخية التي لا يمكن للانسان الوقوف عليها كاملة فقال : (فلا اكتب حادثة حتى اتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار وغالبها من الامور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف وربما أخرت قيد الحادثة حتى اثبتها ويحدث غيرها وانساها فأكتب في طيارة (فيشة) حتى اقيدها في محلها عند تهذيب هذه الكتابة وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيق العطف) •

وقد كتب الجبرتي للحقيقة والتاريخ دون ابتغاء مرضاة الآخرين وابتعد كل الابتعاد عن الهوى او المصلحة ولم يتأثر كما تأثر غيره من المؤرخين في سردحوادث التاريخ بمذهبهالديني او السياسياو الاجتماعي وانما كان نزيها في كل ما كتب ، ولم يتكسب بكتابة التاريخ فيكتب على النحو الذي يرضى الرؤساء والعظماء او الاغنياء تقربا منهم او تزلفا اليهم او مناقضا • ومن هنا طغى على كتاباته الجانب الاخلاقي •

وقد اكد هذه الحقيقة في نهاية مقدمة المقدمة حيث قال (ولم اقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير أو امير او ان فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق لميل نفساني او غرض جسماني) .

وقد تميز الجبرتي فضلا عن ذلك بواقعيته وحبه للحقيقة وتحريه للواقع فلم يجعل من تاريخه كتابا . لعلية القوم او خاصتهم كما لم يوقفه على الامور الجليلة الهامة او الاقتصاد على سرد اسماء الملوك والامراء او وصف المعارك والميل للمبالغة في اعمال الملوك والامراء واعداد الجيوش وغيرها وانما جعله سفرا عاما يؤرخ فيه كل حدث ضخم كبير او تافه صغير ولم يترك شيئا وصل له مهما كان قيمته العلمية الا ودونه في هذا السفر .

فأن هذا القول الذي أورده الجبرتي يدل دلالة واضحة على انه يعلم علم اليقين قيمة هذا البحث وهو يعتز بجهده الذي عالج فيه التاريخ غاية الاعتزاز ، ولا يمنعه التواضع من التنويه عنه بأسلوب المؤرخ القدير الذي يعرف كيف يصل الى اهدافه وغاياته بسهولة ويسر .

وتأتي اهمية هذا الكتاب من ان صاحبه عاصر تلك الحوادث وشاهد اكثرها شهادة عين ودونها بلحظاتها ، ولا سيما اخبار الحملة الفرنسية واوائل ولاية محمد علي .

وبعد هذا الكتاب من حيث الحوادث التاريخية المصرية كالتكملة لتاريخ ابن اياس .

طبع تاريخ الجبرتي سنة ١٢٩٧ هـ وبعدها في اربع مجلدات ويقال انه طبع طبعة قبل هذه السنة صادرتها الحكومة لان فيها طعنا في اعمال محمد علي رأس الاسرة الخديوية ثم اصدرت الحكومة هذه الطبعة بعد حذف الطعن وكل ما اظهر من الطبعات منقولة عنها وقد نقل هذا التاريخ الى اللغة الفرنسية شفيق منصور وعبد العزيز كحيل ونقولا كجيل

واسكندر عمون وطبع في القاهرة سنة ١٨٨٨ م •

ومن ميزات كتابه هذا انه اسهب واطال في تراجع الاشخاص فقد ترجم هل من عرفهم او لا يعرفهم وبغض النظر عن قيمتهم ومكانتهم الاجتماعية من امراء واعيان ومن كل رفيع او وضيع • ولقد غالى في الاستشهاد بالشعر والشعراء من متقدمين ومعاصرين حتى زادت على بضعة مئات والذي يبدو انه لا يعاني نظم الشعر وانما يحفظه ويتذوقه •

ولم يهمل الجبرتي الاحوال الاجتماعية والحياة الاقتصادية الفاعلة في سير التاريخ التي كثيرا ما كان يجهلها بعض المؤرخين اما غفلة فهم عن ملاحظتها أو جهلا بتلك الاحوال جملة •

فذكر اسعارالمحصولات الزراعية بشكل دقيقوالازمات الاقتصادية التي مرت في البلد والمشاكل والفتن الاهلية التي كانت تثيرها هذه الازمات •

وتكلم بشكل مفصل عن السكة والنقود فعدد انواع العملة واسماءها وذكر اوزانها •

يحتوي الجزء الاول من تاريخ الجبرتي على فصلين كبيرين •وجعل للكتاب مقدمة ثم جعل لهذه المقدمة مدخلا صغيرا او تمهيدا يقع فياحدى عشرة صفحة عرف في بدايتها التاريخ تعريفا علميا دقيقا وعين بشكل واضح وحدد اغراضه واهدافه ومراميه وبين فائدته •

فعرف التاريخ بأنه علم يبحث فيه معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وانسابهم ووفاتهم •

وقال في تمديد موضوعاته (انها تشمل احوال الاشخاص الماضية من الانبياء والاولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم) •وهو من هذه الناحية يختلف في فهمه للتاريخ مع ابن خلدون،

اذ يراه تاريخا بالاشخاص بغض النظر عن منزلتهم الاجتماعية وتأثيرهم في الاحداث في البلد .

في حين ان ابن خلدون رفض المبدأ رفضا قاطعا واكد بقوة على ان التاريخ دراسة للاحداث من حيث اثرها الاجتماعي ومعناها الفلسفي ،اذ انـه نص على ان التاريخ (علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتمـاع الانساني) ثم اوضح سبب ذهابه هذا المذهب حين قال ان دراسة التاريخ تستلزم تعليل الحوادث وربط بعضها ببعض وانه يجب ان يتناول وصف التطور في البيئة الاجتماعية بكل ما فيها من تيارات سياسية واحـداث عسكرية وصناعة وتجارة وعلم وفن ومن حركات اجتماعية عامة او دينية او اقتصادية او فكرية .

اما فائدته واغراضه فهي المعبرة بتلك الاحوال والنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحرز العاقل عن مثل احوال الهالكين من الامم المذكورة السالفين ويستجلب خيار افعالهـم ويتجنب سوء افعالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي) .

قال الشافعي : من علم التاريخ زاد عقله .

وتمثل بالابيات الشعريـة قائلا :

اذا عرف الانسان اخبـار من مضـى
توهمته قـد عاش من اول العمـر
وتحسبه قد عاش آخـر دهـره
الى الحشر ان ابقي الجميل من الذكر

فكن عالما اخبار من عاش وانقضـى
وكن ذا نوال واغتنم آخر الدهـر

وقد اوضح في هذا التمهيد موضوع بداية التاريـخ الاسلامي ، واكد على ان اول من وضع التاريخ في الاسلام الخليفة عمر بن الخطاب

(رض) وذلك حين كتب ابو موسى الاشعري الى عمر انه يأتينا من قبل امير المؤمنين كتب لا ندري ايها نعمل فقد قرانا صكا محلـه شعبان فما ندري اي الشعبانيين هو الماضي ام القابل وقيل رفع لعمر صك محلـه شعبان فقال اي شعبان هذا ؟ هذا هو الذي نحن فيه او الذي هو آت ثم جمع وجوه الصحابة رضي الله عنهم • وقال ان الاموال قد كثـرت وما قسمناه غير موقت فكيف التوصل الى مـا يضبط بـه • وبعد ان استعرض الصحابة تواريخ الفرس والروم واليهود وغيرهم استقر الرأي على ان يجعلوا تاريخ دولة الاسلام من وقت هجرة الرسول •

وقد انهي هذا التمهيد بقوله سنورد أنشاء الله تعالى ما ندركه من الوقائع حسب الامكان والخلو من الموانع الى ان يأتي امر الله وان مردنا الى الله ولم اقصد بخدمته خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير او اميـر ولم أدان فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق اميل نفسـاني او غرض جسماني وانا استغفر الله من وصفي طريقا ولم اسلكه وتجارتي برأس مال لم املكه) •

ثم استشهد بهذين البيتين من الشعر :

ومن يحدو وليس لـه بعيـر
ومن يرعى وليس لـه سـوام

ومن يسقي وقهوتـه سراب
ومن يدعو وليس لـه طعـام

وبعد التمهيد تأتي مقدمة الكتاب وتقـع في سبـع صفحات وهي محاولة لمحاكات مقدمة ابن خلدون فقد تطرق فيها الى علم الاجتماع حيث تحدث عن ضرورة تكوين المجتمع البشري واهميته واسـباب نشوئه • واوضح فيه انه لا يمكن للانسان ان يعيش بدون المجتمع ان الانسان يولد عضوا في اسرة او قبيلة او انه انضوءة تحت لواء الجماعة بالفطرة

ليوفر على نفسه اسباب العيش فقال :

(ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها واخرج منها ماءها ومرعاها وبث بها من كل دابة وقدر اقواتها احوج بعض الناس الى بعض في ترتيب معاشهم ومأكلهم وتحصيل ملابسهم ومساكنهم لانه ليس كسائر الحيوانات التي تحصل على ما تحتاج اليه بغير صفة فأن الله تعالى خلق الانسان ضعيفا لا يستقبل وحده بأمر معاشه لاحتياجه الى غذاء ومسكن ولباس وسلاح فجعلهم الله يتعاضدون ويتعاونون في تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذاك ويخبز ذلك لهذا وعلى هذا القياس تتم سائر امورهم ومصالحهم) .

ومعنى هذا ان الانسان مدني بالطبع او اجتماعي بالطبع وهو نفس الرأي الذي ذهب اليه ابن خلدون وعبر عنه في مقدمته المشهورة قال :

(ان الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسك بفطرته ربما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير صوفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحين والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري وهب انه يأكله حبا من غير علاج فهو ايضا يحتاج في تحصيله ايضا حبا الى اعمال اخرى أكثر من هذه الزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة ..) هذا هو كلام ابن خلدون ، وقد استوفاه الجبرتي بعبارة

موجزة مقتضبة ، واخذ منه فحواه ولبه .

ثم ينتهي الجبرتي بعد ان يبرهن على ان الانسان اجتماعي او مدني بالطبع الى حاجة هذا المجتمع بعد تكوينه الى حاكم عادل يدير شؤونه وبالتالي ظهور الدولة والقوانين والانظمة لتحكم هذا المجتمع وتسيره وفق المطلوب . فيقول :

ثم مست الحاجة بينهم الى سائس عادل وملك عالم يصنع بينهم ميزانا للعدالة وقانونا للسياسة يوزن به حركاتهم وسكناتهم وترجع اليه طاعتهم ومعاملاتهم ، والجبرتي في هذا يتبع ابن خلدون فيما ذهب اليه من احتياج الناس الى السلطان والحكم ، لتنظيم حياتهم ، وتسيير امورهم فيقول ابن خلدون :

ان الملك منصب طبيعي للانسان ذلك ان البشر لا يستطيعون الحياة الا باجتماعهم وتعاونهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة وقد يطمع كل منهم فيما يملك غيره بما في طبيعة الانسان من ظلم وعدوان ويمانعه الآخر بمقتضى الغضب والانفة والقوة البشرية فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة والهرج وسفك الدماء وانقطاع النوع الذي خصه الباري سبحانه بالمحافظة ومن هنا برزت حاجتهم الى حاكم قوي يسلمون له قيادهم ويخضعون لاوامره ونواهيه ليعيد الى مجتمعهم النظام ويقي الضعيف بطش القوي .

ويرى ابن خلدون انه لا بد لكل حاكم عندما يتولى امر الناس ان يضع قانونا لهم يسيرهم وفق مبادئه لان هذا القانون مما يعجل باستتباب الامور ويجمع القلوب على حبه .

ثم قسم الجبرتي المجتمع الى طبقات خمس سماها اصنافا مستشهدا بالآية الكريمة (رفع الله بعضهم فوق بعض درجات) واستشهد بقوله تعالى ايضاً (هو الذي جعلكم خلائق في الارض ورفع بعضكم فوق

بعض درجات) مخالفا بذلك جمهرة علماء الاقتصادالذين يجعلون التفاوت الاقتصادي اساسا لتقسيم المجتمع • وجعل الانبياء الطبقة الاولى : لانهم عمد الدين وامناء الله في خلقه وهم السرج المنيرة على سبيل الهدى وحملة الامانة عن الله الى خلقه بالهداية وبعثهم رسلا الى قومهم •

أما الطبقة الثانية : فجعلها للعلماء الذين هم ورثة الانبياء وهم احباب الله وصفوته •

وجعل الملوك وولاة الامور في الطبقة الثالثة • لانهم يراعون العدل والانصاف بين الناس والرعايا توصلا الى نظام المملكة وتوصلا الى قوام السلطنة لسلامة الناس في املاكهم وابدانهم وعمارة بلدانهم ولا قهرهم ولا سطوتهم تسلط القوي على الضعيف والذي على الشريف •• لان الظلم والجور كامن في النفوس ولا يظهر الا بالقدرة ثم استشهد قائلا :

لولا الخلافة ما قامت لنا سبلا
وكان اضعفنا نهبا لاقوانا

أما الطبقة الرابعة : فهم اوساط الناس ، يراعون العدل في معاملاتهم بالانصاف منهم ويكافئون الحسنة بالحسنة والسيئة بمثلها •

والطبقة الخامسة : هم القائمون بسياسة نفوسهم وتعديل قواهم وضبط جوارحهم وانخراطهم في سلك العدل لان كل فرد من الافراد مسؤول عن رعايته كما قال الرسول (ص) كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، وكما قيل صاحب الدار مسؤول عن اهل بيته وحاشيته •

وختم الجبرتي هذه المقدمة (بتوضيح) كما سماه ، عرف فيه الانسان تعريفا علميا دقيقا وميزه عن الجماد والبهائم بفضله النطق والعلم• واشار الى الغرائز وبين تأثير التربية والمران ودورهما على تنشيط هذه الغرائز وتمنحها وتوجيهها الى جهة الخير او الشر ، فقال :

ان الانسان من حيث الصورة التخطيطية كصورة في جدار وانما فضيلته بالنطق والعلم ولهذا قيل ما لانسان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة فبقوه العلم والنطق والفهم يضارع الملك وبقوة الاكل والشهوة والنكاح والغضب يشبه الحيوان فمن صرف همته كلها الى تربية القوة الفكرية بالعلم والعمل فقد لحق بأفق الملك فيسمى ملكا وربانيا كما قال الله تعالى (ان هذا الا ملك كريم) .

ومن صرف همته كلها الى تربية القوة الشهوانية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فحقيق بأن يلحق بالبهائم .

وينفرد الجبرتي في هذا الفصل عمن سبقه من المؤرخين بما فيهم ابن خلدون في اسداء النصح فيه للحكام والملوك الذين يسوسون الرعية واوضح لهم سبل السياسة واكد عليهم بالتشاور والتعاون مع ذوي الالباب فقال (من استعان بذوي العقول ادرك المأمول) واكد على العدل بين الناس بقوله (من عدل في سلطانه استغنى عن عوانه) وانه يرى ان من استشار ذوي الرأي والالباب اصحاب الصواب وسلك سبيل الرشاد .

وحذر الملوك والحكام من ابعاد ذوي الفضائل واصطناع ذوي الرذائل والغرور والاستخفاف بعظمة الناصح أو الاغترار بمدح المادح ومن استغنى بعقله ضل ومن اكتفى برأيه زل .

كما حذرهم تحذيرا شديدا من اصطناع السفلة فانهم سبب هلاكهم وزوال نعمتهم .

وربط صلاح الامة والشعب بصلاح الملك ضرب لنا امثلة متعددة استخلصها من تاريخنا الاسلامي في وجوب النصح للملك او الامير فقال (كتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن البصري انصحني فكتب اليه ان الذي يصحبك لا ينصحك والذي ينصحك لا يصحبك) .

وسأل معاوية الاحنف بن قيس كيف الزمان فقال له أنت الزمان ان صلحت صلح الزمان وان فسدت فسد الزمان .

وأكد الجبرتي على ان آفة الملوك سوء السيرة وآفة الوزير خبث السريرة وآفة الجند مخالفة القادة وآفة الرعية مخالفة السادة .

ثم انتقل الجبرتي بعد ذلك الى الغرائز الانسانية واثر البيئة والتربية فيها . فذكر بأن الاخلاق صفة غريزية في الانسان الا انه يمكن تنميتها وتهذيبها وتوجيهها الوجه المطلوبة بالرياضة والممارسة والتدريب فهي تتأثر بمعاشرة الاصدقاء اما بالصلاح او الفساد فرب طبع كريم افسدته معاشرة الاشرار وطبع لئيم اصلحته مصاحبة الاخيار واستشهد بقول الرسول (ص) (بأن المرء على دين خليله) واستشهد ايضا بقول علي بن ابي طالب يوصي ابنه الحسن (الاخ رقعة في ثوبك فانظر بمن ترقعه) .

وبعد أن طلب من الله ان ييسر له حسن الختام ويصرف عنه سوء القضاء انتقل مباشرة الى موضوع آخر لا يمت الى الموضوع الذي سبقه بصلة فدخل الى صلب تاريخ البشر . وسرد الحوادث التاريخية واعتبرها بداية او مدخلا لموضوعه فقال : (وهذا او ان انشقاق كمائم طلع التاريخ عن زهر مجمل التاريخ ، ثم بدأ بعد هذا يتكلم عن الخلافة والرسل والانبياء واعتبر آدم اول خليفة في الارض ثم توالت بعده الرسل وان واجب هؤلاء الرسل مقررون شرائع الله بين عباده وان محمدا (ص) خاتم الانبياء .

ثم تكلم عن دور الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول واشار الى قول الرسول بأن الخلافة من بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضودا .

وبعدها استعرض الدولة الاموية وثم الدولة العباسية حتى دخول التتر الى بغداد وسقوطها ومقتل الخليفة العباسي .

وبعد هذا العرض الذي قدمه لنا الجبرتي ينتقل الى الدويلات التي انفصلت عن الخلافة العباسية فأحمد بن طولون واولاده بمكة والشـام ومصر ثم الاخشيديون •

وقد استعرض في بقية الفصل تاريخ مصر من الاخشيدين الى سنة ١١٤٢ هـ الى السلطان سليم بن السلطان سليمان وكتب عن ملـوك هذا الدور اخبارا عن حياتهم واعمالهم واستعرض الحياة السياسية العامة في البلد واوضح التكالب على المناصب والمؤامرات التي تحاك ضد بعضهم البعض وسرد لنا احداثا وقعت في هذا الخصوص ثم ذكـر الجبرتي في نهاية الفصل ثبتا كبيرا بمن توفي في هذه السنوات من بداية القرن حتى سنة ١١٤٢ هـ وقد تضمن ثبت الوفيات قصائـد كثيرة جـدا في رثاء من مات •

ومن أهم ما ذكر في هذا الفصل من احداث مهمة كـان لها تأثيرا مباشرا على حياة الناس هو تدهور الوضع الاقتصادي والمالي الذي ساد البلاد في هذه الحقبة من الزمن وارتفاع الاسعار والمجاعات التي حلت بالبلاد نتيجة سوء الادارة الاجنبية وهي سياسة معروفـة اتصف بهـا المستعمرون •

لقد حلت في البلاد مجاعة في الثاني عشر من رمضان سنة ١١٠٢هـ فهاجر اهل القرى والارياف الى مصر حتى امتلأت بهم الازمـة واشتد الكرب على الناس حتى اكل الناس الجيف ومات الكثير من الجـوع وخلت القرى من اهاليها • فبيع من الحنطة بستمائة نصف فضة والشعير بثلاثمائة والفول بأربعمائة وخمسين والارز بثمانمائة نصف فضة •

وخطف الفقراء الخبز من الاسواق ومن الافران من على رؤوس الخبازين ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيدهم العصي حتى يخبزوه في الفرن ثم يعودون به •

وظل الامر كذلك الى ان عزل علي باشا في الثامن عشر من محرم سنة ١١٠٧ هـ وتولى بعده اسماعيل باشا • ومن الطف ما اذكر عن اسماعيل باشا طريقة معالجته لهذه المجاعة الرهيبة وهي طريقة مبتكرة وطريفة فقال الجبرتي : (فلما استقر ـ اسماعيل باشا ـ بالولاية ورأى ما فيه الناس من كرب وغلاء فأمر جميع الفقراء والشحاتين بأن يحضروا بقرا ميدان • فلما اجتمعوا امر بتوزيعهم على الامراء والاعيان كل انسان على قدر حاله وقدرته واخذ لنفسه جانبا ولاعيان دولته جانبا وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء الى ان انقضى الغلاء) •

وقد اعقب هذه موجة الغلاء والقحط هذه وباء عظيم فتك بالآف الناس فأمر الباشا بيت المال ان يكفن الفقراء والغرباء فصاروا يحملون الموتى من الطرقات ويذهبون بهم الى مغسل السلطان الى ان انقضى امر الوباء • وذلك خلاف من كفنه الاغنياء واهل الخير والتجار وغيرهم •

وفي سنة ١١١٦ هـ ارتفعت الاسعار بشكل غريب فبيع الاردب من القمح بمائتين واربعين فضة والفول كذلك والعدس بمائتين فضة والشعير مائة ونصف فضة والارز اربعمائة نصف فضة وبيع لحم الضان كل رطل بثلاثة انصاف فضة والجاموس والبقري بنصفين والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلاثمائة فضة وخمسين والدجاجة بثمانية انصاف • وكل ثلاث بيضات بنصف ، ورطل الشمع والدهن بثمانية انصاف •

وفي سنة ١١١٨ هـ شح التماس الهندي والبن اليماني حتى بلغ القنطار منه الفين وسبعمائة وخمسين بسبب تأخير وصول مراكب اليمن والهند الى مصر •

اما الفصل الثاني فقد افرده لذكر حوادث مصر وولاتها وتراجم اعيانها ووفياتهم مبتدئا من سنة ثلاث واربعين ومائة والف (١١٤٣ هـ)

ويقع في ١٣١ صفحة • وقد ابرز الجبرتي فيه بعض السمات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي في هذه الحقبة • فذكر ان في سنة ١١٤٦هـ ابطل قابجي باشا سكة الذهب الفندقلي وحزب الرز محبوب كامل وصرفه بمائة نصف وعشرة انصاف وكذلك سكة النصف محبوب وصرفه بخمسة وستين نصف فضة • وزاد الفندقلي الموجود بأيدي الناس فصار يصرف بمائة وستة واربعين نصف فضة ص ٢٧٨ •

وفي هذه السنة رفعت الجزية عن اليهود والنصارى وهي اربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسبعون • والدون مائة •

وفي سنة ١١٤٧ تولى باكير باشا ولايته الثانية وجاء الى السويس يوم السبت رابع عشر من شوال وصرخت العامة في وجهه من جهة فساد المعاملة (العملة) وهي الاخشاو المرادي والمقصوص والفندقلي • فـأن الاحسا صارت بستة عشر جديدا والمراوي بأثنى عشر والمقصوص بثمانية جدد وصار صرف الفندقلي بثلاثمائة نصف والجنزرلي بمائتين • بسبب ذلك الاسعار التي كانت بالمقصوص بالديواني • ص ٢٨١ •

وفي نفس السنة فرضوا ضرائب علـى قطـاع معين مـن الشعب (فجعلوا على كل عثماني نصف جنزرلي فبلغت ثمانية واربعين الف عثماني فكانت اربعة وعشرين الف جنزرلي ،وقد قسمت بين الحكام وارسلوا الى عثمان بيك ورضوان بيك الف جنزرلي فأبيا من قبولها وقال هذه دموع الفقراء والمساكين فلا نأخذ منها (ص ٢٨٣) •

وفي نفس السنة وقع الطاعون المسمى بطاعون كووسمي ومات كثير من الاعيان وغيرهم بحيث توفي من عائلة واحدة مائـة وعشرون نفسا . وسارت الناس تدفن موتاهم بالليل خلافا عن النهار • (ص ٢٨٩) •

وبعد ان استعرض في هذا الفصل الولاة الاتراك الذين حكموا مصر والفتن الداخلية والمؤامرات ختمت بثبيت من الوفيات ذكر فيه من

مات في هذه السنين من اعيان العلماء والاكابر والعظماء ، مع ترجمة وافية لحياة كل واحد منهم •

وقد اشغل هذا الثبت اكثر صفحات الفصل الثاني •

ثم كتب ثبتا آخر بعد الثبت الاول في ذكر من مات في هذه السنين من الامراء المشهورين والاعيان المعروفين واخبارهم وتراجمهم وقد تخللت هذه التراجم قصائد شعرية لشعراء مختلفين قيلت في رثاء من مات منهم •

المراجع

١ ــ ابن خلدون ــ المقدمة

٢ ــ رضا كحالة ــ معجم المؤلفين • ط دمشق ١٩٥٨ •

٣ ــ جرجي زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ط اولى ١٩١٤.

٤ ــ مجلة تراث الانسانية م ٤

٥ ــ عبدالفتاح ابراهيم دراسات في الاجتماع ــ ١٩٥٠.

٦ ــ دائرة المعارف الاسلامية •

٧ ــ عبدالرحمن الجبرتي ــ عجائب الآثار في التراجم والرجال ــ الجزء الاول (مخطوط) •

٨ ــ عمر فروخ تاريخ الفكر العربي • دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٠ •

٩ ــ علي عبدالوحد وافي ابن خلدون منشيء علم الاجتماع ــ القاهرة مكتبة نهضة مصر •

١٠ ــ حسن الاشموني ــ الدولة بن الرأي ابن خلدون ورأي ميكافيلي.